8
سفينة الأصدقاء

مع الفيل

فى بلاد سيام

تأليف : سامى البجيرمى

رسوم : محمد فايد

دار الرشد

سَألَ مُحَمَّدٌ : « أينَ نحنُ ؟ » .

أجابَهُ الفِيلُ : « نحنُ فى « سِيَام » (تَايْلاَنـد ـ حَالياً) ، ولكِنْ لا يَعيشُ فى هَذا الجُزءِ مِنَ البلادِ كثيرٌ مِنْ نَوعِى ، فمُعْظَمُنا يَعيشُ فى الشَّمال ، حَيثُ توجَدُ غَابةٌ كَثيفةٌ تَجُولُ فيها الأفْيَالُ البَرِّيَّةُ حيثُ تَشَاءُ ، وتَعْمَلُ ما يَحْلُو لهَا ، وأمَّا الأليفَةُ ، فتَشْتَغِلُ بِجَرِّ كُتَل الأخْشَابِ ورَفْعِها بَعْدَ قَطْعِ الأشْجارِ .

وأمَّا هُنَا فى الجَنوبِ ، حيثُ الأرض مُسَطَّحةٌ ، وحيثُ الأرزُ بكَثرةٍ فلا يُوجَدُ إلا القَليلُ مِنَّا » .

وكانَ الفِيلُ واقِفاً على شَاطئِ نهرٍ واسعٍ ـ ومُحَمَّدٌ على ظَهْرِهِ ـ وكانَتْ تَبْدُو على جَانِبَى النَّهرِ بَعْضُ الأكْوَاخِ المصْنُوعةِ من خَشَبِ « التَّاكة » أوْ مِنَ القَصَبِ الهِنْدِىِّ ، وسُقُوفُها من سَعَفِ (جَرِيد) النَّخيل .

كَذَلِكَ كانَ فى النَّهرِ نَفْسِه كَثيرٌ مِنَ المَنازِلِ الطَّافِيَةِ مَحْمولة فَوْقَ حِزَمٍ من الأخْشَابِ ، وهَذه الحِزَمُ مَشْدُودةٌ إلى أعْمِدَةٍ خَشَبِيَّةٍ على الشَّاطِئِ .

وكانَ أمامَ كلِّ منزلٍ (رَصِيفٌ)
صَغِيرٌ يَجْلِسُ عَلَيهِ النَّاسُ
ويَطْبخُون ، أو يَأكُلُون ، أو يَتحادَثُون .
وعلى تِلْكَ (الأَرْصِفَةِ) يَقْضِي أهَالى
(سِيَام) مُعْظَمَ يَومِهِمْ ، ويَعرِضُ التُّجَّارُ
مِنْهُمْ بَضَائِعَهم للبيعِ .

وَالْتَفَتَ الفِيلُ إلى مُحَمَّدٍ قائلاً « سَأعُودُ إلى الغَابةِ !! ».

قَالَ مُحَمَّدٌ : « ومَاذا ستفعلُ فيها ؟ » .

قَالَ الفِيلُ : « سَأفْعَلُ الكَثِيرَ ، فَمُعْظَمُ وَقْتِ الأفيالِ يَنْقَضِي فى البَحْثِ عن الغِذَاءِ ؛ لأنَّ الفِيلَ الوَاحِدَ يحْتَاجُ إلى ١٠٠ كِيْلُو جِرامٍ من الأعْشَابِ والنباتاتِ .. لذلكَ فإنِّى سَأحاولُ الانْضِمَامَ إلى أىِّ جَماعةٍ ؛ لأنِّى لا يُمكِنُ أنْ أعيشَ وَحِيداً إلى الأبَدِ » .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « ومَاذا سَتَفْعَلُ فى هَذِهِ الجماعةِ ؟ » .

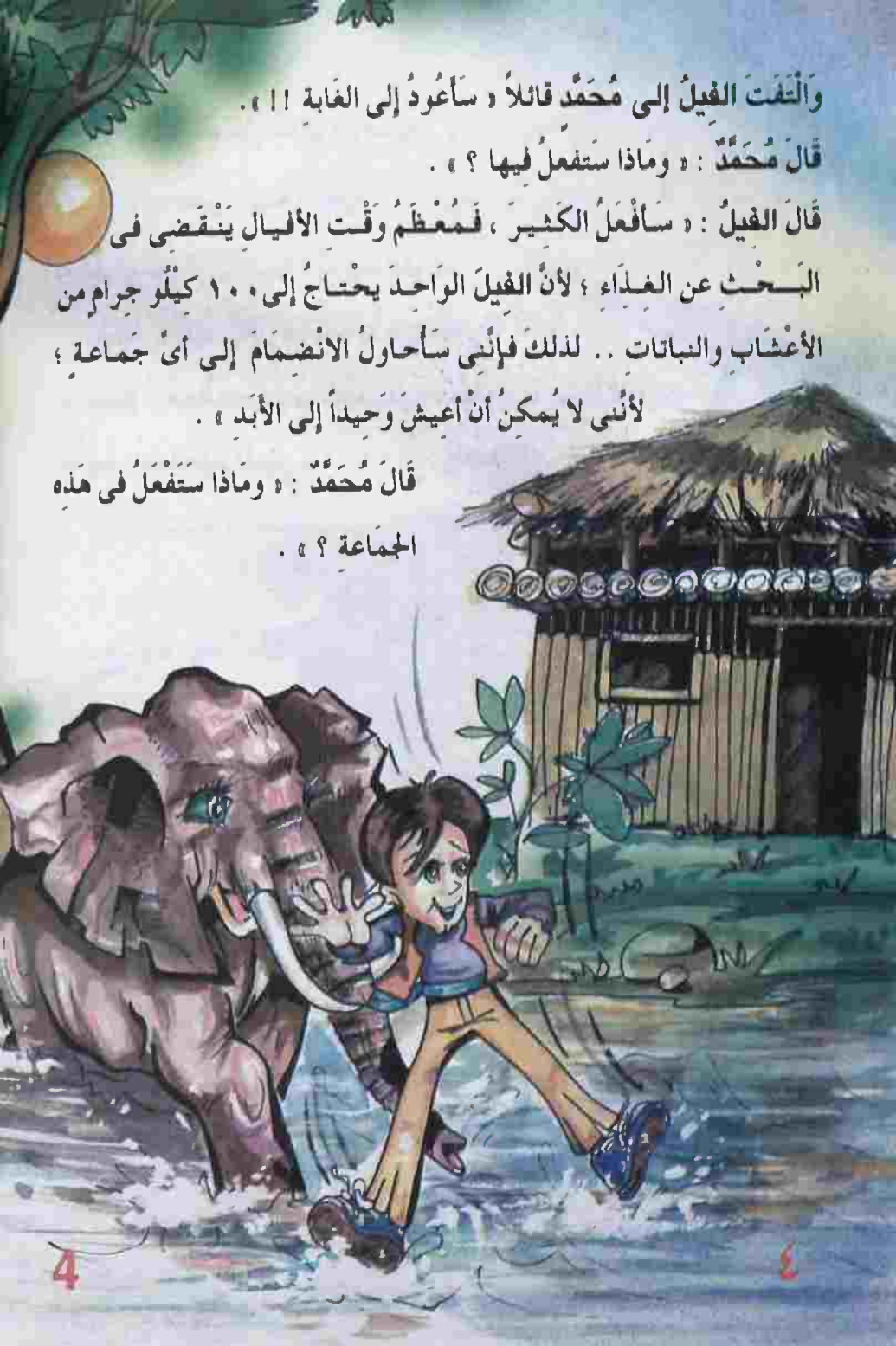

قَالَ الفِيلُ : « إنَّ الأفْيَالَ تُحِبُّ التَّحَرُّكَ فى جَماعاتٍ ، حَيثُ تَتَحَرَّكُ الإناثُ والصِّغارُ فى بِدايةِ الجَماعةِ ، وتَكُونُ مَهمَّتى وبَقِيَّةُ الذُّكورِ حِمايةَ الجَماعةِ ؛ ولِهَذا نَسِيرُ فى نِهايةِ القَطيعِ .. آه .. نَسِيتُ شَيئاً : ما رَأْيُكَ أنْ تَستَحِمَّ مَعِى فى النَّهرِ قَبْلَ أنْ أَمْضِى ، فَأنا وكُلُّ الأفْيَالِ نُحِبُّ الاسْتِحْمَامَ كثيراً » .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « أُوافِقُ علَى ذَلِكَ ، فَأنَا أيْضًا أُجِيدُ السِّباحَةَ » .

ونَزَلَ الفِيلُ فى النَّهرِ وعلَى ظَهْرِهِ مُحَمَّدٌ ، وما إنْ غَاصَ تَحتَ الماءِ حتَّى تَزَحْلَقَ مُحَمَّدٌ من فَوْقِهِ ، وأَخَذَ يَلْعَبُ ، ويَقْفِزُ فى الماءِ ، وكانَ الماءُ دَافِئاً ؛ لأنَّ الجوَّ فى بِلادِ سِيام حَارٌّ ، والشَّمْسَ تَسْطَعُ فِيها كلَّ يومٍ وتَكُونُ شَدِيدةَ الحَرَارةِ .

لمحَ مُحَمَّدٌ بَعْضَ الأولادِ يَلْعَبُونَ علَى مَسافةٍ مِنْهُ وسَمِعَ أحَدَهُمْ يُناديهِ قَائلاً : «مَاذَا تَفْعلُ هُنَا، أيُّها الفَتَى الغَرِيبُ ؟ ! تَعَالَ لِتَلْعَبَ مَعَنا».

وكانَ الأوْلادُ فى قاربٍ صغيرٍ ، امْتلأَ بِهِمْ ، فَأمْسكَ مُحَمَّدٌ بِجانبِ القاربِ ، وحاوَلَ الصُّعُودَ إليهِ ، فانْقلَبَ بِمَنْ فيهِ ؛ وحَزِنَ مُحَمَّدٌ حُزْناً شَديداً لأنَّه خَشِىَ أنْ يَغْرقَ أحدُ الأوْلادِ .

لَكِنَّهُمْ كانُوا جَميعاً مَهَرَةً فى السِّباحةِ ، وتَقدَّمَ أحدُهُم ، وأمْسكَ بالقاربِ ، وأعادَهُ كَما كانَ ، وسَبَحَ الآخَرونَ نَحْوَهُ ، وصَعِدوا إليهِ ثانيةً ، ولما حَاولَ آخرُ ولدٍ مِنْهُمْ الصُّعودَ انقلَبَ بِهِمْ القاربُ مَرَّةً أُخْرَى ؛ وقَدْ كانَ ذلكَ مَبْعثَ سُرورٍ وتَسليةٍ لَهُمْ .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « إنَّ كُلاً مِنْكُم ، يُجِيدُ فَنَّ السِّباحةِ ، ما سِرُّ ذَلِكَ ؟ ». أجَابَهُ الأوْلادُ :

« إنَّ كَثِيرِينَ مِنَّا يَعِيشُونَ بالقُرْبِ من النَّهْرِ أو (عَلَيهِ) فى تِلْكَ المَنازِلِ الطَّافِيَةِ ؛ وفى أيامِ طُفولَتِنَا تَضَعُ لَنَا أُمَّهاتُنا تحتَ أذْرُعِنا (عَوَّامَاتٍ) من الصَّفيحِ ثُمَّ يَقْذِفْنَ بِنَا فى الماءِ ، فَنَعْلُو ونَهْبِطُ ، وكَأنَّنا قِطَعٌ من الإسْفِنْجِ .. وبهذِهِ الطَّرِيقةِ يَتعلَّمُ أكْثَرُنا السِّباحةَ قَبْلَ أنْ يَتعلَّمَ المَشْى » .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « هَذا رائعٌ ، والآنَ هيَّا بِنَا نَلْعَبُ لُعْبَةً أُخْرَى !! ».

شَدَّ الأولادُ القاربَ إلى جانبِ النَّهرِ ، وقَفَزوا إلى الشَّاطِئِ المَغْمُورِ بالطِّين ، ثُمَّ أخَذوا يَجْعَلون من الطِّين (كُرَاتٍ) يَقْذِفُ بَعْضُهُمْ بِها بَعْضاً .

وعِنْدَما تُصبِحُ أجْسَامُهم مُغَطَّاةً بطَبَقةٍ من الطِّينِ من رُءوسِهم إلى أقْدامِهم ، يَنزِلون إلى النَّهرِ ، فَيَزُولُ عَنْهم الطِّين ، وتَعُودُ أجْسَامُهُمْ كَما كَانتْ قبلَ بَدْءِ اللَّعْبِ .

ولاحَظَ مُحَمَّدٌ أنَّ مَلابِسَهم لَمْ تَكُنْ سِوَى قِطْعةٍ من النَّسِيجِ الرقيقِ ، يَلفُّونَها حَوْلَ أجسَامِهِمْ علَى شَكْلٍ يَجْعلُها تَبْدُو كَأنَّها مَلابِسُ واسِعةٌ ، وكَانُوا يَسْتَحِمُّون بِها ، فَإذَا خَرَجُوا مِنَ النَّهرِ جَفَّتْ فِى الشَّمْسِ بِسُرعةٍ .

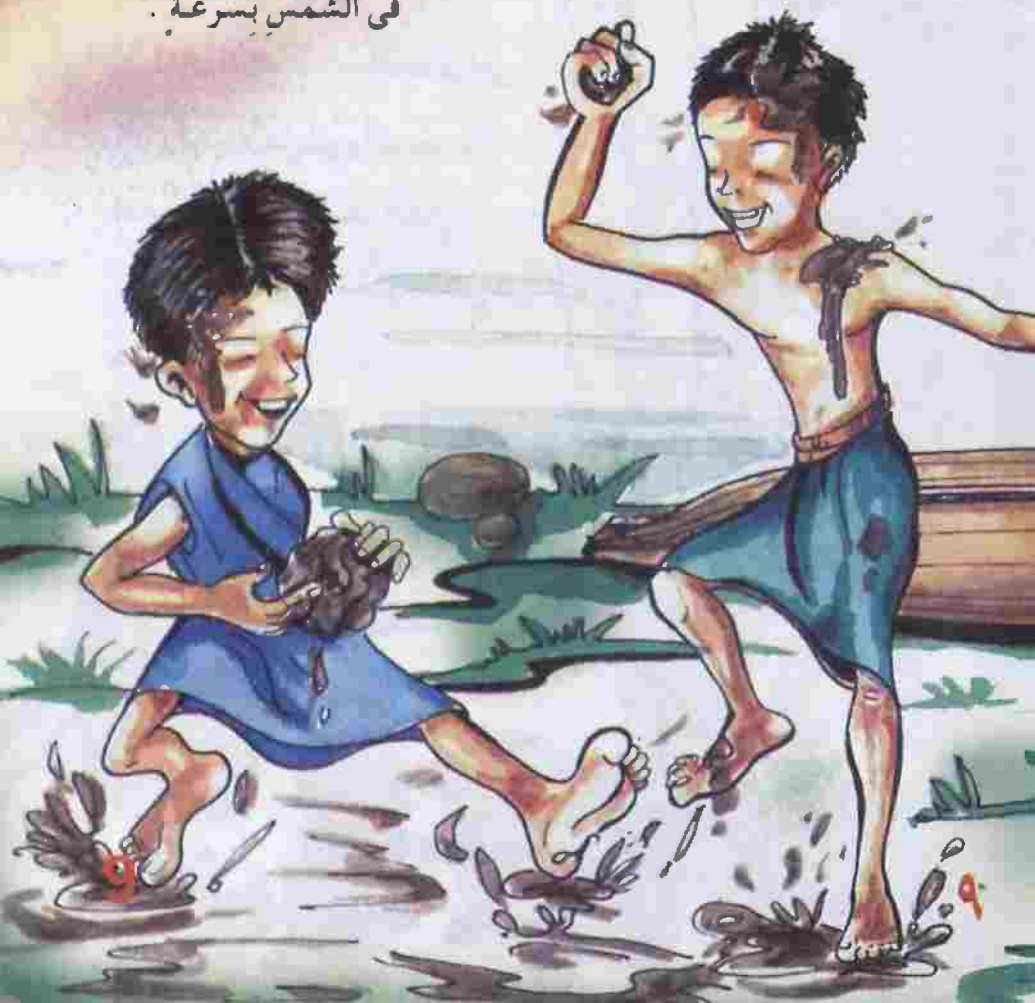

وبَعْدَ أنْ لَعِبَ مُحَمَّدٌ معَ الأولادِ، شَعَرَ بالجُوعِ ، فطَلَبَ من أحَدِهِمْ أنْ يُحْضِرَ لَهُ شَيئاً لِيأكُلَهُ .

فقالَ له الوَلَدُ : « فَلْنَسْألْ أمّى ؛ لأنَّ وقْتَ الأكْلِ لَمْ يَأتِ بَعْـــدُ .. فنَحْنُ الآنَ فى مُنتصَفِ النَّهارِ » .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « نَحْنُ نأكُلُ فى هَذا الموعدِ فى بِلادِنا » .

قَالَ الوَلَدُ : « أمَّا نَحْنُ فَلا نَأكُلُ إلاَّ مَرَّتَينِ فى اليَومِ ؛ مَرَّةً فى الصَّبَاحِ ، قَبْلَ أنْ تَشْتَدَّ حَرارةُ الشَّمْسِ ، والأُخْرَى فى المَساءِ ؛ وقَدْ نَشْرَبُ الشَّاى بينَ الأكْلَتَينِ ، أو نَأكُلُ قِطْعَةً من الكَعْكِ ، ولَكِنَّا لا نَأكُلُ أكْلَةً كَامِلَةً » .

وكانَ مُحَمَّدٌ والوَلَدُ قَدْ وَصَلاَ إلى المَنْزِلِ ، وهُو مُقَامٌ علَى شَاطِئِ النَّهْرِ فَوْقَ قَوائِمَ خَشَبِيَّةٍ كَى لاَ تَغْمُرَهُ المِيَاهُ إذا فَاضَ النَّهرُ .

ففى (سِيَام) يَنْعَدِمُ المَطَرُ مدَّةَ سِتَّةِ أشْهُرٍ ، ثُمَّ تُمطِرُ السَّمَاءُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلَّ يَومٍ لمدَّةِ سِتَّةِ أشْهُرٍ .. ويرتفعُ مَنْسُوبُ المِيَاهِ فى النَّهْرِ حتَّى يَغْمُرَ الأراضِى المُنْخَفِضَةَ علَى جَانِبَيْهِ ..

وكانَ المَنزِلُ يَتكوَّنُ مِنْ ثَلاثِ غُرَفٍ ، كَما هِىَ الحَالُ فى كُلِّ بُيوتِ (سِيَام) ، حَيثُ يَنامُ النَّاسُ فى غُرفةٍ علَى (حُصُرٍ) مفروشةٍ على الأرضِ ، وغُرفةٌ للجُلوسِ ، حَيثُ يَجْلِسُون علَى الأرضِ أيضاً ، فليسَ لَدَيْهِمْ مَوائِدُ ولا كَراسِى ، ثُمَّ تكُونُ الغُرفةُ الثَّالثةُ لطَهْى الطَّعَامِ .

وفورَ أنْ دخلَ مُحَمَّدٌ المنزلَ نادى الولدُ على أُمِّه قائلاً :

« هُنا ولدٌ غريبٌ يريدُ شيئاً ليأكُلَهُ » .

وكانتِ الأمُّ - ككُلِّ سيِّداتِ سيام - عطوفًا طيِّبةً .. فنهضتْ في الحالِ ، وقدَّمتْ لمُحَمَّدٍ أرزاً ، وقدَّمتْ له - غيرَ الأرزِ - سمكاً في أطباقٍ صغيرةٍ ، ثُمَّ موزاً وجوزَ الهندِ .

ثُمَّ سألتهُ في لُطفٍ : « هَلْ أنتَ مسرُورٌ ؟ » .

قالَ مُحَمَّدٌ : « نَعَمْ ، كُلَّ السُّرُورِ » .

وجلسَ مُحَمَّدٌ معَ أفرادِ الأسرةِ على (الرَّصيفِ) ليستريحَ ..

وفى أثناء ذلك كان مُحَمَّدٌ يشاهدُ القوارب من مُختلف الأشكال والأحجام ، تذهبُ وتجيءُ على صفحة الماء .

وكانَ بعضُ تلك القوارب صغيراً جداً لا يتسعُ إلاَّ لشخصٍ واحدٍ يركبُ فيه ، ويدفعُه فى الماء بمجدافٍ صغيرٍ ، والبعضُ الآخرُ أكبرُ من ذلك ويسيرُ بمجاديفَ كبيرةٍ ، وكانَ بعضُها مُحمَّلاً بالأرز أو بجوزِ الهندِ أو القصبِ ، وكانَ البعضُ الآخرُ مُحمَّلاً بالناسِ .

سألَ مُحَمَّدٌ : « ما سببُ كثرةِ القواربِ على هذا النهرِ ؟ » .

أجابَ الجالسونَ معَهُ :

« لأنَّه ليسَ لدَيْنا إلاَّ القليلُ منَ الطُّرقِ المرصوفةِ على الأرضِ .

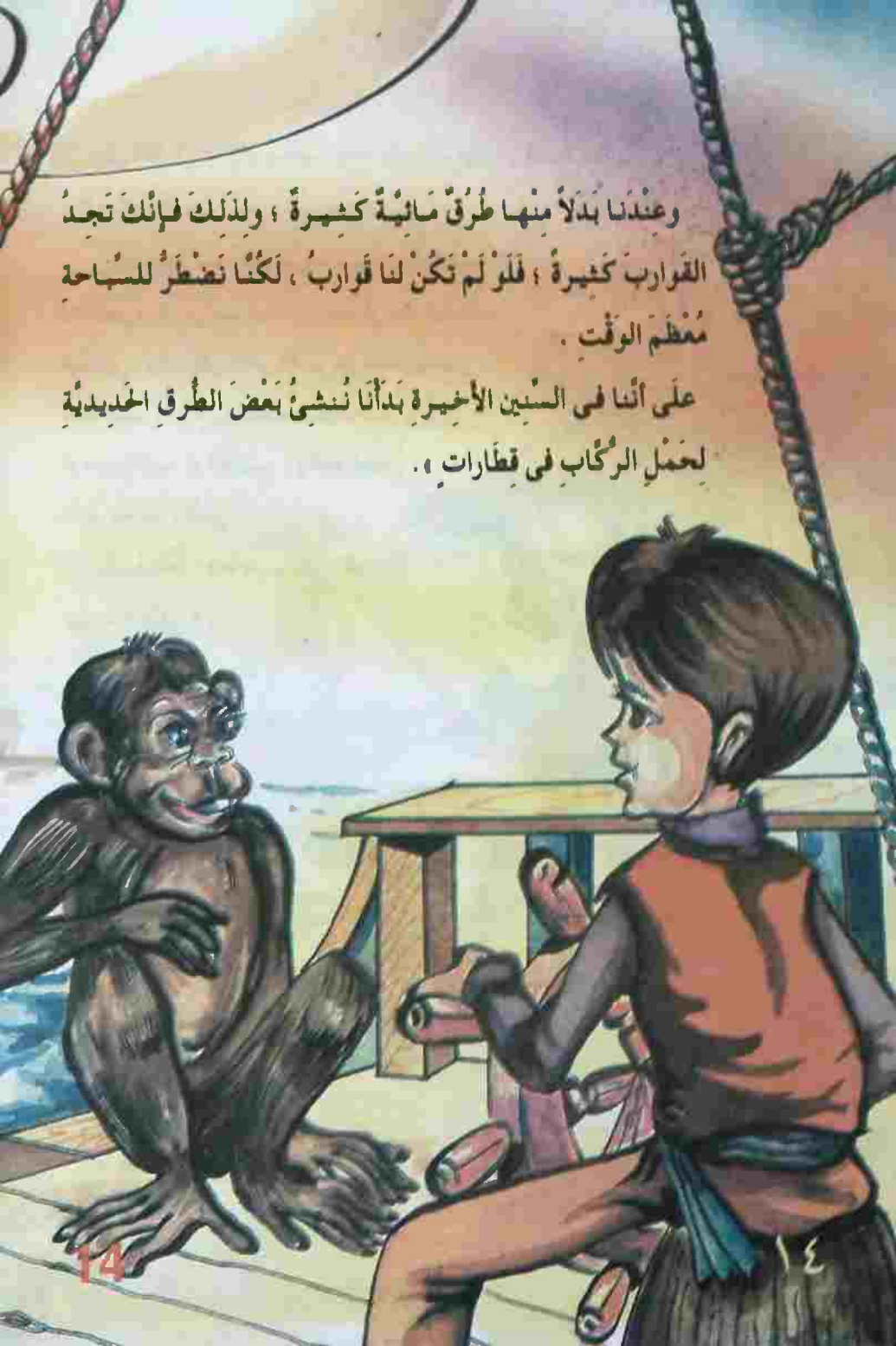

وعِنْدَنا بَدَلاً مِنْها طُرُقٌ مائِيَّةٌ كَثِيرةٌ ؛ ولِذَلِكَ فإنَّكَ تَجِدُ القَوارِبَ كَثِيرةً ؛ فَلَوْ لَمْ تَكُنْ لَنا قَوارِبُ ، لَكُنَّا نَضْطَرُّ لِلسِّباحَةِ مُعْظَمَ الوَقْتِ .

عَلَى أنَّنا فى السَّنِينِ الأخِيرةِ بَدَأْنَا نُنشِئُ بَعْضَ الطُّرقِ الحَدِيدِيَّةِ لِحَمْلِ الرُّكَّابِ فى قِطَاراتٍ » .

عِنْدَ ذَلِكَ وَجَدَ مُحَمَّدٌ أَنَّ الوقتَ قَدْ حَانَ للعَودةِ إلى السَّفينةِ ..

وعِنْدَما وَصَلَ إِلَيْهَا لَمْ يَجِدْ باقياً على ظَهْرِها من الحَيواناتِ سوى اثْنَيْنِ: الشِّمْبَانْزِى واليَاك ..

وكانَ « اليَاكُ » مُسْتَغْرِقاً فى النَّومِ فالْتَفَتَ مُحَمَّدٌ إلى الشِّمْبَانْزِى ، قائلاً :

« انْهَضْ ، يَا رَجُلَ الغَابةِ .. الآنَ دَوْرُكَ ، وسَأَعُودُ بِكَ إلى وَطَنِكَ ! » .

صَاحَ الشِّمْبَانْزِى :

« هَذَا بَدِيعٌ !! ولَكِنَّكَ لا تَعْرِفُ الطَّرِيقَ فَدَعْنِى كَىْ أَقُودَ السَّفِينةَ بِنَفْسِى ، واذْهَبْ إلى غُرفةِ نَومِكَ لتَنَامَ غُرفةَ نَومِكَ لتَنَامَ ، ولا تَشْغَلْنِى حتَّى نَصِلَ إلى بِلادِى » .

حَيَّاهُ مُحَمَّدٌ وذَهَبَ لِيَنَامَ ولَمْ يَسْتَيقِظْ إلاَّ على صَوتِ الشِّمْبَانْزِى يَطْرُقُ البَابَ قائلاً :«لَقَدْ وَصَلْنَا !!» .

« لَقَدْ وَصَلْنَا !! » .

الناشـــــر : **دار الرشـــاد**
العنـــــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــــون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقـم الإيـداع : ٨٢٨٤ / ٩٨
الترقيم الدولى : 977 - 5324 - 70 - X

الطبـــــع : **عربية للطباعة والنشر**
العنـــــوان : ٧ ، ١٠ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــــون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣

الجمـــــع : **أرمس**
العنـــــوان : ٣٢ شارع على عبد اللطيف ـ مجلس الأمة
تليفـــــون : ٣٥٦٤٤٠٤

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م